البلباسي عبد الحميد فهمي مرسي

شاعر

الجيش ! هكذا يطلقون عليه . . .

وقع عليه الاختيار ليجلس على مقعد الشئون العامة فى وزارة السيف . ليشرف على أضواء الثقافة فى ربوع الجيش . .

تصادفه . . فتتأثر لمرآه . فهو شخصية مرحة . واذا تحدثت اليه فتحس بأنك فى حضرة انسان مهذب .

قوى البناء شأن أبناء الصعيد ، وان كان يتعرض أحياناً للتصدع من جراء ما يبذل من جهد . أما أنه أبداً مرفوع الرأس فذلك يعود الى هامته التى تتطلع نحو الأفق البعيد

كثيراً ما ينسى نفسه فى حومة الفكر والمشاغل . ولكن هيهات أن ينساه الناس . فشخصيته لها رونقها . لا يعبأ بشىء . ينفق عن بذخ واسراف فى كل ما يتعلق بماديات الحياة ومعنوياتها . ولعل سر مرحه أنه يذيب سنينه فى قلبه ، قلبه الذى ينبض بغير ترفق أو حذر !

ومن صفاته المرموقة أنه يعتنى بهندامه !

وهب رأسه لشعره ، وأوقف حياته لدنيا المجتمع . . فالتمع نجمه رأسي يشار اليه بأكثر من بنان!!

له علائق طيبة ووشائج وثيقة بأكثر من شاعر وأديب وفي طليعتهم الاستاذ الكبير محمد الاسمر حتى ليخيل للبعض أنهما توأمان!!

هذه هي الصورة السريعة التي استطعت أن أرسمها لعبد الحميد الإنسان الذي لا يطوى في صدره حقداً لمخلوق . بعد أن عرفته زهاء سبع سنوات

أما عبد الحميد الشاعر . . . فكلماته جزلة وعباراته سهلة . ومعانيه واضحة . . لا تقتضي من يستوعبها أن يضع تحت بصره مراجع اللغة أو بتعبير آخر ليست عميقة كالبئر فتحتاج الى دلو لكي تتبينها ! !

استهل حياته في التاسع والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٠٩ . والتحق بالكلية الحربية في صيف عام ١٩٢٧ وتخرج فيها برتبة الملازم الثاني في يناير سنة ١٩٣٠ ـ وانضم الى الكتيبة الأولى بنادق المشاة . وكانت فرقته أول فرقة دخلت الكلية باجازة البكالوريا

تنقل في جملة مناصب . . فعمل بسلاح المهمات الملكي يوماً ما . وتولى منصب أركان حرب ديوان وزارة الدفاع الوطني أكثر من ثلاث سنوات . وظل أكثر من سنتين بعيداً عن النطاق العسكري لمحض اختياره حتى إذا ما عاد الجو الذي يلائم طابعه الطبيعي عاد إلى منصبه الحالي برتبة الصاغ

بدأ ولعه بالشعر . . من يوم أن كان يتذوق ألوان الأدب فيما يقع بين يديه من كتب بمحض المصادفة في صغره . فيقتطف منها ما يروقه نظماً ونثراً ويجمعها في كراسة فاخرة التجليد

وكان حريصاً على هذه المقتطفات ، ضنيناً بها ، وكثيراً ما تمثل بها فى أحاديثه ورسائله حتى حفظ الكثير منها ـ ولما كان فى مرحلة التعليم الثانوى استبد به الشغف ، وراح ينفق فى شراء المجلدات الأدبية والدواوين الشعرية أكثر من طاقته

ولكن هل كان يدور بخلده يوماً أن سيكون شاعراً ؟ . . .

بالطبع .. لا . ومع هذا فقد بدأ القريض فجأة .. وفى مناسبة شاذة . هى على ما يقول « حين قرر الأطباء اجراء عملية جراحية له » .

ومن ثم ذهب فى الطريق الذى يقطعه كل شاعر ..

لحدث أن أصيب بصدمة عنيفة فى مستهل حياته الشعرية . وهل هناك صدمة أشق من وفاة الأم . . وهى التى كانت بصفة خاصة أثيرة لديه ، محببة اليه ..

أنصت اليه وهو يقول :

أيد المنون قطفت أية زهرة ... فيحياء فى روض الزمان الفسائى
مست أنامل الزهور كثيرة ... من نرجس وشقائق النعمان
فاخترت أذكاها أريجاً زهرة ... بزت روائحها شذى الريحان
فخطفتها لم ترعى نجلا لهـــا ... يبكى تشاركه البكا بنتان

والأم هى عدة الابن لكفاح الزمان وصراع الأيام .. وهو يريد أن تبقى أمه مع كر الأعوام . لايجف عودها ولا توارى الثرى .

وكما سقيت الأم كأس الحمام ، شرب هو بدوره كأس الحزن حتى ارتوى ..

صرحاً بنيت أمانياً فأتى على ... تلك الأمانى طارق الحدثان
فانهار صرحك والقصور تهدمت ... لما القضاء أناخ بالبنيان

قد كنت أرغب أن تكون طويلة ... دهراً حياتك طيلة الأزمان
لكن قضاء الله جاء مطالباً ... وقضاء ربك نافذ بأوان
جاء الحمام بكأسه فشربتها ... والحزن جاء بكأسه فسقاني
فقد كان صدرك فى الحوادث واسعاً ... وتثير حلمك منزل الطمآن

ولكن أو ترى هذا القلب الذى يتألم لفقد أمه لايتحرك إذا ماأصيب نسران من نسور وطنه فيسقطان على أرض فرنسا خلال عودتهما إلى مصرهما ..!

لقد ساهم عبد الحميد فى هذا الحادث الأليم الذى أودى بانطارين حجاج ودوس . فقال :

فى سبيل المجد ما لاقيتماه ... هكذا فليسع للمجد السماه
طرتما والجو داج مظلم ... والردى مبسوطة فيه يداه
نهم لايفتأ الدهر إلى ... كل شهم نابغ يفغر فاه
فاحتوت شخصيكما أشراكه ... وطوى برديكما فيما طواه
مرحباً بالموت من أجل العلا ... أنتما لم تقصدا شيئاً سواه
منية لو يظفر النجم بها ... تاه فخراً وعلا فوق علاه
ليس شعب أنتما من طيره ... دون أوروبا نسوراً وبزاه
لم تموتا إن ماقد نلتما ... من فخار هو فى الحق حياه
لو أتى الموت وجاها لكما ... لرأى كيف يلاقيه رداه
ليس الظلمة وانسل الى ... حيث أجرى الدم من مصر الفتاه
قد يصاد الحوت لا عن غفلة ... بل لأن البحر معكر المياه

وما أن أخذ شعره فى النضوج حتى خاض المجتمع واتخذ من عيد ميلاد

المغفور له جلالة الملك فؤاد ـ طيب الله ثراه ـ موضوعاً لشعره والتغنى بأعماله والاشادة بآثره . .

وقد أنشد ـ فيما أنشد ـ فى مديحه ، فقال مبتهجاً بعيد ميلاده

يوم يتيه على الزمان ويفخر ... بسمت أزاهره وفاح العنبر
صدحت بلابله ورق نسيمه ... ومشت جداول مائه تتبختر
فى مثله طلعت بأفق بلادنا ... شمس المليك على العباد فكبروا
وجدوا تيمنهم بطلعة وجهه ... (من أنعم الله التى لا تكفر)
ميلادك الميمون هذا يومه ... عيد جليل فى الزمان مشهر

والشاعر بطبيعته كمصرى ، ومركزه كجندى ، يتوجه الى الزمز الأعلى للوطن . . بروحه وبقلبه وبكل ما يملك

فيردد ألحانه فى اطراء الفاروق المعظم ، الفاروق العزيز الذى يملأ كل بيت بصورته ، ويشغل كل قلب بمحبته . . ويعيش فى صدور أبناء امته

وهذه احدى قصائده التى حازت الجائزة الاولى فى مباراة الشعراء الضباط التى أقيمت فى فبراير عام ١٩٤٢ ، احتفاء بعيد ميلاد القائد الأعلى

الله أكبر لاح نور هلاله ... عيد أطل على الورى بجلاله
وافى ويمن الله فوق لوائه ... وعناية الرحمن فى اقباله
يوم أغر مشى الزمان بركبه ... مستبشراً متهللا بجماله
فيه بدا الفاروق أعظم نعمة ... من أنعم المولى ومن أفضاله
ولدت بمولده أمانى أمة ... فاستشرفت وتطلعت لهلاله

أحيا الرجاء بها وفاض ببره ... متدفقا بيمينه وشماله

ملك إله العالمين أظله ... وأظل مصر وأهلها بظلاله

لم يألُ جهدا فى بناء بلاده ... يجرى على سنن الهدى من آله

ألفى سبيل أبيه أقوم منهج ... فاختاره ومشى على منواله

مترسما خطواته ، ومتمما ... أعماله . والشبل من رئباله

أضفى على الوادى (فؤاد) أنعما ... عمت جميع سهوله وجباله

هو فك مصر من القيود وأسرها ... وأعز شعب النيل باستقلاله

وبنى له الدستور حصنا قائما ... فيه الصليب معانقا لهلاله

العلم والعرفان ملء إهابه ... والهمة الشماء بعض خصاله

ما بين جامعة وبين معاهد ... قامت بفضل جهوده وبماله

آثاره فى مصر شاهدة له ... برهان صدق ناطق بفعاله

وتبوأ الفاروق عرش جدوده ... فاذا جميع الخير فى أعماله

عمت مآثره البلاد جميعها ... كالغيث يحيى الروض باستهلاله

ملك تحف بشعبه آلاؤه ... كأب ، تحف حنانه بعياله

تاه الفقير بعطفه حتى غدا ... مثل الغنى يجر من أذياله

فتراه بعد عرائه وحفائه ... متجملا بثيابه ونعاله

وعلى موائده المساكين الأولى ... وصل الحنان حبالهم بحباله

شبعوا عليها بعد جوع وارتووا ... بشهى مطعمه وعذب زلاله

* * *

عمر المساجد بالصلاة كأنه (عمر) لدى المحراب بين رجاله

لم يبق منها مسجد إلا له حظان من تكبيره وتوالله

فلو ان أعواد المنابر أدركت قدر المليك خففن لاستقباله

(فاروق) مصر أعز دين محمد فكأنما (الفاروق) فى سربالله

جمع الشباب إلى الكياسة والتقى والحزم والاقدام بعض خلاله

أحيى لهجرة (أحمد) ذكرى سرت مسرى النسيم تفوح بين خلاله

هى سنة ، محمودة ، قد سنها مرضى الاله بفعله وبقتاله

نور الصباح يشع من قسماته كالبدر مؤتلقاً بأوج كماله

متواضع لله فى عليائه ومراقب لله فى أفعاله

فإذا تجلى للعيون ركابه أعطينه نظر المحب الواله

ورأينه ذخر الحمى ، ورأى الحمى فيه مناه ، ومنتهى آماله

الجيش معتز به ومفاخر بالقائد المفدى من أبطاله

أعلى اللواء فلاح منه هلاله متساميا كأخيه فى إهلاله

وزهت على زهر النجوم نجومه نبروجها الشماء دون منال

وحبا الجنود بعطفه فكأنه ليث الشرى الحانى على أشباله

وسمت رعايته بهم نحو العلا مستعصمين بفعله ومقاله

فاليوم جيش النيل ينهض نهضة (علوية) عزت على أمثاله

أضحى قوياً فى الجيوش مزودا بالطائرات تشد أزر مصاله

وبكل جائبة الوغى يعنو لها وجه الثرى بهضابه وتلاله

فمتى وزاد عديده وعتاده فهو الغداة يذود عن أغياله

ويرد عن أوطانه كيد العدا بليوثه ، ونسوره ، ونصاله

فتراه بين حماته ، وتراه فوق رماله
آكامه ، وتراه فوق رماله

فإلى العلا وإلى الأمام شعاره
فى كل ما يجتاب من أحواله

يرعى الحمى حتى إذا ربع الحمى
ألفيت شدة بأسه وقتاله

* * *

مولاى هذا الجيش أنت عماده
ورجاؤه ، فى حاله ومآله

يعتز باسمك فى السلام وفى الوغى
والجيش منتسب الى أفياله

مولاى أنت له فزده رعاية
فالسيف يظهر حسنه بصقاله

* * *

مولاى هذا الشعر وحيك كله
العيد ألهمنى بديع خياله

غردت بالألحان فيه ولم أزل
فى كل عيد جائلا بمجاله

فرض أؤديه الى الملك الذى
أضحى ملاذ الشرق فى أوجاله

وغدا له فى كل قلب منزل
فى حله إن حل أو ترحاله

حسنت به الدنيا وعز به الحمى
ورآه وادى النيل أحسن فاله

أما المديح أو الاطراء .. فقد ساهم فيه بقسط وافر .. وان لم تصدق .. فها هى ذى مقطوعته فى حفل أقيم لتكريم الجندى الأول فى جيش الفاروق! الفريق ابراهيم عطاالله باشا بمناسبة منحه نيشان الاستحقاق الاميركى من درجة كومندور .

ماذا أقول وهل لشعرى موضع
من بعد ما حزت الثناء الأكبرا

ولاك (فاروق) الكنانة منصبا
حليت مظهره وزنت المخبرا

ونهضت بالعبء العظيم مثابرا ... لم تدر يوماً ما رجوع القهقرى
ووصلت ليلك بالنهار مجاهدا ... ودأبت تعمل مسياً ومبكرا
أبليت فيه لمصر والملك الذى ... وهب الشباب لها كريما خيرا
مصر التى قوى عزائم جيشها ... فاليوم يرهب بأسه من أبصرا
لم يأل جهدا دون رفعة شأنها ... إلا أعد له العتاد وشمرا
هو رافع علم الجهاد ، وحارس ... مجد الحمى ، وهو الغضنفر فى الشرى
هو قدوة للعاملين ، ومثل ... كالنيل يسقى وارديه الكوثرا
وبه اقتديت وكنت فى النهج الذى ... يرضيه ، عف السير ، ميمون السرى
فظفرت للجيش العتيد بشكره ... وجنيت حمداً للبلاد ومفخرا
من أمة عظمت وعز مكانها ... فى العالمين وشأنها فوق الذرى
(أمريسكة) عرفت لمصر بلاءها ... وجيش مصر وما أحق وأجدرا
فعلى يديك اليوم نال وثيقة ... نشرت مآثره العظيمة فى الورى
وجلا بها الحق المبين مفاخرا ... للجيش تملأ مقلتى من أنكرا
فاقبل من الشعر الغداة تحية ... يهدى الجمان بها وينثر جوهراً
فى ظل قائدنا المليك المفتدى ... فليبق منشور اللواء مظفراً

وحين أنعم جلالة الملك على الصحفى الكبير أنطون بك الجميل رئيس تحرير جريدة الاهرام الغراء برتبة الباشوية فقد جادت قريحته بالأبيات التالية.

علم الصحافة هب يراعى بعض ما ... ملكت يداك من البيان وسحره
حتى أسوق لك القوافى جدولا ... يسعى الى نبع البيان وبحره
عطف من الفاروق أغدقه على ... روض من الأخلاق فاح بزهره
هو قد حبانا كلنا متعطفا ... لما حباك بفضله وببره

فاقبل صديقى تهنئات كلها ملأى بآيات الوفاء وعطره

ولم يغفل الشاعر النواحى الاجتماعية ، فساهم بقلمه فى احياء عيد رأس السنة الهجرية . وفيما يلى قصيدة ألقاها فى احتفال الجيش بهذا العيد الذى يحتفى به العالم العربى بأسره

هجرة الرسول

خفق الفؤاد بوجده وبما به وشكا إلى المختار فرط عذابه
وسرى اليمام به على جنح الدجى يطوى الأثير إلى كريم جنابه
جاب الفيافى والحزون مغامرا فى السير ليس بحافل أوآبه
لا يستكين لما يلاقى من ضنى فى مرتقى صعب على هجتابه
يسعى إلى حرم النبى المصطفى ويرف مثل الورق فوق قبابه
يا نائيا عنى ومالى منية أسمى وأفضل من ذرى محرابه
واديك أرفق ما يكون بقاصد يا خير من لاذ الانام ببابه
انى لأصبو أن أراك فهل ترى قلبى يفوز بمنتهى آرابه ؟
يا أيها النور الذى بهر الورى وبدا فبدد من كثيف ضبابه
آذوك لما بالرسالة جئتهم ودعوت للبارى وهدى كتابه
فلقيت بالصبر الجميل اذا همو ماضاق صدرك بالأذى وذئابه
من كل عار عابد أصنامه يهوى على الهادى بقاطع نابه

* * *

أوردتهم شهد الهداية صافيا فسقوك من مر الجحود وصابه

هاموا بكيدك مسرفين فكلهم ... باغ يسوق الكيد من أبوابه
آذوك لما قلت يا قوم اهتدوا ... واخشوا من الجبار يوم حسابه
فصدعت بالأمر الالاهى الذى ... كان انتصار الحق فصل خطابه
لما أبوا الا الضلال مطية ... ودعوت انت إلى الهدى وصوابه
هاجرت تسعى للمدينة عابرا ... ذات الطريق بسهله وهضابه
وسعى (أبو بكر) يقاسمك السرى ... ويرد كيدهمو على أعقابه
(وادى تهامة) لم يردك قيظه ... عما أردت ولا فسيح يبابه
يا (غار ثور) كم شرفت «بأحمد» ... ورأيت من عجب الهدى وعجابه
يا غار نبىء كيف كان «محمد» ... متطلعا لله خلف حجابه
كيف الحمامة عند بابك عششت ... لترد عنه الظن من طلابه
والعنكبوت سعى اليك وجد فى ... غزل الخيوط وفى نسيج ثيابه
يا غار صف (ذات النطاقين) التى ... كانت تجىء بزاده وشرابه
(أسماء) بنت رفيقه الصديق من ... كان الوفى له وخير صحابه
ما زال سراً خافياً حتى بدا ... كالبدر أشرق من خلال سحابه
ضاءت (ثنيات الوداع) بنوره ... ورأت صباح الحق بين إهابه
قد تجلى فوق يثرب ساطعاً ... فى هالة الانصار من أصحابه
هرعوا له متسابقين كأنهم ... بحر يعج بلجه وعبابه
تبعوا رسالته الكريمة وارتووا ... وسقاهم الايمان من أكوابه
صالوا على الطغيان أكبر صولة ... ورموا بسهم الصدق نحو كذابه
كانوا له يوم الجهاد رماحه ... وسيوفه فى طعنه وضرابه

بهمو استقر الدين فوق أساسه فهم الأولى شدوا عرى أطنابه
قد أينع الإسلام بعد جهادهم وأوى الأنام الى رحيب شعابه
وغدت حواشته وعزة مجده بيد المليك العبقرى النابه
«فاروق» من بهر الورى بصلاحه وأعز دين المصطفى وسما به

* * *

ولقد كان من دواعى السرور ذلك التقدير العظيم الذى ناله ضابط شاعر من ضباط الجيش زاول الأدب مدة طويلة واستطاع أن يثبت مكانته فى دولته ـ وأعنى به الشاعر الموهوب المرحوم عبد الحليم حلمى المصرى . حين أحيوا ذكراه بحديقة الأزبكية يوم ١٨/ ٦/ ١٩٤٢ تحت الرعاية الملكية السامية وفى مثل هذه الذكرى ساهم لفيف من كتاب وشعراء المملكة فى احياء الحفل . فخطب المرحوم عبد الله عفيفى بك إمام الحضرة العلية الملكية خطبة بليغة وتكلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى فسرد تاريخ حياة الفقيد وأثنى على شاعريته وانتاجه . وانشد الأستاذ محمود أبو الوفاء قصيدة عامرة الأبيات وقص الصاغ اركان الحرب محمد عبدالفتاح ابراهيم «السياسة فى شعر عبد الحليم . . » وأنشد صاحب الترجمة قصيدة جاء فيها .

انما الإنسان فى الدنيا سير وحديث بعد حين يذكر
لفظة ان ينطق الدهر بها فهى سطر خط فى لوح القدر
ذلك اللوح الذى لا يمحى ما عليه من جهود وأثر
كل من شاد بناء فله فى سطور اللوح ذكر وخبر

قد قرأنا فيه ذكرى شاعر صاغ فى ظل عواليه الدرر
وشدا بالشعر عذبا مثلما غرد البلبل فى وقت السحر
حلية الفارس أبيات له هى للجيش كاكليل الظفر
وفخار السيف شعر منتق وبيان من معان وغرر
وقديما كان من يحمى الحمى هاتفاً بالشعر فى كروفر
ليس بدعاً أن تغنى فارس كم شجاع شاعر فيما غبر
سطر التاريخ ذكرى فارس صال بالسيف ـ وبالقول شعر
بعداد الخلد فى الدهر غدا ماثلا للناس فى طول العصر
صادح من بعد سامى لم يزل ذكره بين الحمى الذكر العطر
فانثروا الشعر على الميت فما بعد عذب الشعر باقات الزهر
يذبل الورد سريعاً بينما أقحوان الشعر يزهو فى العصر
ويعيه الناس فى طول المدى ويرون القوم ذكرا وصور
فليدع كل امرىء من بعده أحسن الذكرى فنى الذكرى عبر
يذهب المرء وتبقى بعده خالدات الذكر من خير وشر
ليس يجدى جاهه من بعده أو كنوز المال فى حسن السير

والشاعر لاينسى أن يساهم فى شعر الأغانى ، ودليلنا على ذلك النشيد التالى :

نشيد الجهاد

يا حماة النيل هيا نبتدى عصر الجهاد

فارفعوا أعلام مصر فوق هامات العباد
أقسمت مصر العزيز ة أن تسود ولن تساد
حققوا هذا اليمين

مصر يا مهد الأسود نحن أشبال الجدود
لا نهاب الموت انا نبتغي منه الخلود
كل فرد عن حماك في لظى الهيجا يذود
فاسلمي في كل حين

مصر إنا نفتديك بالدماء والقلوب
نبذل الارواح فيك ان دنت منك الخطوب
فاهنئي يامصر وابقي درة بين الشعوب
في حمى الجيش الأمين

في جلال الملك دومي في سنا التاج الكريم
وابلغي يامصر مجداً دونه المجد القديم
وارفلي في العز دوماً في حمى العرش العظيم
فليعش حامي العرين

وللشاعر مساجلات وطرائف . . أولتها جريدة الاهرام الغراء عناية خاصة ـ نذكر منها «خروف العيد» وما أدراك ما خروف العيد !

وعلاوة عن ذلك فللشاعر فتوحات في دنيا الغزل ! فقد استطاعت أبياته في هذه الناحية أن تفعل ما يحسدها عليها السيف

ويطيب لى فى هذا المقام أن أقدم صورة ناطقة من غزله بعنوان «عتاب»

اتهمينـــــــى أنى نزعت هواك من قلبى ؟
وملأ نفسك التشكيـ اك فى ودى وفى حبى
إذا كنت نويت النقـــ ض فى العهد فما ذنبى ؟
لعمرك جل من قسم لأنت من الدنا حسبى
فما أنساك فى بعـــد ولا أسلوك فى قرب
وما يبرح فى عينـــى خيـــال منك لى يصبى
وما زال بآذانى طلاوة لفظك العـــذب
وهبت اليك إخـــلاصى وما فى ذاك من كذب
فكفى الآن لائمتى عن التقريع والعتب
ولا تستصغرى ألماً كلفح النـــار فى قلبى

كما أنه له جولات موفقة فى الرثاء !!

الى هنا ينبغى التوقف فى عرض قصيد عبد الحميد ، بعد أن قدمت نفحة طيبة من نظمه السائغ . لأقول إنه لايصنع الشعر .. وانما الشعر هو الذى صنعه ورفع قوائمه ! !